أوليا جلبي ورحلته إلى الحجاز في أواخر القرن الحادي عشر الهجري

د. سهيل صابان
مكتبة الملك فهد الوطنية

أوليا جلبي بن درويش محمد آغا ظلي. واسمه الحقيقي غير معروف. قيل: إن اسمه حافظ محمد خواجه(١). وهو من مواليد إستانبول عام ١٠٢٠هـ/١٦١١م. والده درويش محمد آغا كان معمرًا، فقد عاش مئة وسبع عشرة سنة. وقد التحق بخدمة عشرة سلاطين عثمانيين(٢)، بدأها بالعمل خبيرًا للجواهر في قصر السلطان سليمان القانوني(٣) (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م). وقد ذكر أن والده قام بتصنيع ميزاب الكعبة المشرفة، والتحق بقافلة الحج متوجهًا إلى الحجاز لتركيبه، وذلك في عهد السلطان أحمد الأول (١٠١٢-١٠٢٦هـ/١٦٠٣-١٦١٧م).

---

(١) سجل عثماني، أو تذكرة مشاهير عثمانية/ محمد ثريا.- إستانبول: المطبعة العامرة، ١٣٠٨هـ: ص ٤٤٤.

(٢) هذا الكلام قد تبدو منه من أول وهلة المبالغة. غير أن المراجع التي تحدثت عن أوليا جلبي ذكرت افتخاره بنسبته لأشخاص معمرين؛ إذ عمر أبوه مئة وسبع عشرة سنة، وجده مئة وسبعًا وأربعين سنة. ومن خلال الحساب تبين أن والده قد خدم السلاطين العثمانيين العشرة مدة أربع وثمانين سنة.

(٣) الأدب التركي الإسلامي/ محمد عبد اللطيف هريدي.- الرياض: جامعة الإمام، إدارة الثقافة والنشر، ١٤٠٧هـ. ص ١٢٩.

درس أوليا جلبي سبع سنوات في مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي، وعمل على حفظ القرآن الكريم على يد أستاذه أوليا محمد أفندي الذي قيل: إن اسمه انتقل إليه منه. ثم درس العلوم الأخرى على يد حسين أفندي الجني وأخفش أفندي. وتعلم من والده في هذه الأثناء حسن الخط وفن الحك(٤) وفنونًا أخرى(٥).

وقد قُدم أوليا جلبي للسلطان مراد الرابع (١٠٣٢-١٠٤٩هـ / ١٦٢٣-١٦٣٩م) في أثناء وجوده في آياصوفيا من لدن ملك أحمد باشا الذي أصبح فيما بعد صدرًا أعظم للدولة العثمانية، وذلك في الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان من عام ١٠٤٥هـ، فعيّنه في مستودعات القصر السلطاني، إذ عمل فيه أربع سنوات، انتقل بعدها إلى فرقة الفرسان (السباهية) بعد تعيينه براتب أربعين آقجة(٦). ومما لا شك فيه أن عمله في القصر قد ساعده كثيرًا على زيادة معارفه الثقافية وتوسع أفقه، وعلى زيادة قدراته الأدبية والإدارية.

وقد عمل أوليا جلبي مؤذنًا وإمامًا لبعض الوزراء(٧) في أثناء

---

(٤) الحك لغة: هو القشر والكشط. واصطلاحًا: هو مهنة وطريقة لقطع الحجارة الكريمة وصقلها. المنجد في اللغة والأعلام.. بيروت: دار الشروق، ١٩٨٦م. ص ١٤٥؛ الموسوعة العربية العالمية.- الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ: ٩/٤٥٧ .

(5) Baslangicindan Gunumuze Buyuk Turk Klasikleri. Istanbul: Otuken-Sogut yay.1987.:5/392.

(٦) الآقجة: تعني لغة: الضارب أو الضاربة إلى البياض، وأصلها مغولية، معناها نقد أبيض، وهي قطعة صغيرة من الفضة، ضربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان عام ٧٢٩هـ. وكانت تستخدم في الأوساط الشعبية للدلالة على الدراهم أو النقود بشكل عام. ووزنها خمسة قراريط وثلاث حبات، أي ربع مثقال. وبحساب الغرامات اليوم أربعة غرامات و ٦١٨ مليغرامًا.. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية/سهيل صابان.- الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ. ص ٢٠ .

(٧) من ذلك عمله مع والي عمر باشا الذي عين واليًا على طرابزون، ورفقته لحسين باشا في أثناء الحملة على آزاق، وكذلك رفقته الطويلة في العديد من الرحلات مع الصدر الأعظم أحمد ملك باشا.

Islam Ansiklopedisi/Turkiye Diyanet Vakfi.:11/530.

الحملة على آزاق(٨) في عهد السلطان إبراهيم خان (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/١٦٣٩-١٦٤٨م). وكُلِّف بمهمات رسمية إلى إيران أيضًا(٩).

ذكر الرحالة أوليا جلبي أن عام ١٠٣٩هـ/١٦٣٠م يشكل حجر الزاوية لرحلاته التي استمرت نصف قرن من الزمان؛ فقد كان يتشوق لرؤية العالم من حوله، والاطلاع على عادات الناس وتقاليدهم عن كثب، فبات وهو يفكر في تحقيق ما كان يصبو إليه من القيام برحلة حول العالم، شرع في رحلته، فبدأها من إستانبول. ثم انتقل منها إلى مدن الأناضول القريبة، وانطلق منها إلى العالم الفسيح، فتجول في ثلاث قارات، هي آسيا وأوربا وأفريقيا. وجال في كثير من البلاد(١٠)، واطلع على أوضاع العباد، وسجل ما راق له من الأخبار والأحوال، وما تعرض له في رحلته من العوارض والأهوال، وأشار إلى خصائص كل بلدة يتجول فيها، وسجل معلومات موجزة عنها من خلال بعض كتب التاريخ المعروفة(١١).

ولقد انتقل أوليا جلبي بعد الانتهاء من الحج إلى مصر. وتوجه منها إلى الحبشة وإلى السودان. فتمكن من الاطلاع على أوضاعهما عن كثب، ودوَّن خلالها مشاهداته التي أخذت حيزًا كبيرًا من المجلد الأخير من الرحلة، فقد خصص ثلاثة أرباعه للحديث عن مصر والحبشة والسودان. ثم عاد إلى مصر التي يبدو أنه مكث فيها ما يقرب من عشر سنوات.

---

(٨) هي قلعة آزاق ومدينتها، وتقع في الشمال الشرقي من شبه جزيرة القريم. افتتحت بيد العثمانيين عام ١٤٧٥م وانتقلت إلى الروس عام ١٦٩٩م.
Risale Masa Ansiklopedisi.Istanbul:Risale yay.1988. p. 52.

(٩) قاموس الأعلام/ شمس الدين سامي- إستانبول: مهران مطبعة سي، ١٣١٦هـ: ١١٠٠/٢ .

(١٠) هكذا كما تقول الرواية التي تذكر أنه قال: سياحت بدلاً من القول شفاعت. ولعل ذلك كان تشجيعًا له في فكرة الرحلة والشروع بها، إذ كان يفكر فيها من القديم.

(11) Yazarlar Sozlugu/Ihsan Isik.-Istanbul: Risale yay. 1990. S. 175.

توفي أوليا جلبي عام ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م. وقيل: يحتمل أنه توفي عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م(١٢). كما قيل: إن تاريخ وفاته ومكانه غير معروفين؛ فقد توفي في أحد التاريخين المذكورين(١٣). وذلك عن عمر يناهز السبعين عامًا. وترك لنا رحلته التي دونها في عشرة مجلدات، فيها الغث والثمين من الأخبار عن البلاد التي زارها كافة. وقد قضى حياته في حل وترحال. وكان معظمها في صحبة رجال الدولة، ولا سيما صحبة قريبه الصدر الأعظم مَلَك أحمد باشا (١٠٦٠-١٠٦١هـ/١٦٥٠-١٦٥١م). وذُكر أنه خال أوليا جلبي. ومما هو جدير بالذكر أيضًا أن الرحالة كان قد شارك في كثير من الغزوات والحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول(١٤).

منهجه في الكتاب:

إن الأسلوب الذي استعمله أوليا جلبي في كتابه يتسم بنوع من الجذب وشد الانتباه للقارئ. فعلى الرغم من وجود بعض الأخطاء النحوية في الكتاب إلا أنه من خلال ذلك الأسلوب السلس استطاع جلب القارئ إلى المعلومات التي أوردها. ولعل هذا الذي أدى بالمؤلف إلى الإتيان ببعض الأساطير، حتى يضفي على رحلته نوعًا من الاهتمام. من تلك الأساطير التي ذكرها الرحالة أنه تربَّى في منزل كان يحوي سبعين من العلماء الأفذاذ(١٥)، وولادة النساء للفيلة في القرى التي كانت تمر منها الفيلة، والحكماء (الأطباء) الذين كانوا يعالجون كل الأمراض(١٦)... أما الحجم الذي تشكلت منه الرحلة فلا يبدو في رحلة أخرى، لا من حيث التفصيلات التي يوردها، ولا من حيث ذلك الحجم الكبير، ولا حتى من حيث الزمن الذي ألفت فيه الرحلة.

---

(12) Islam Ansiklopedisi.Turkiye Diyanet vakfi: 11/529.

(١٣) المرجع السابق.

(14) Turk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi. Istanbul: Dergah yay. 1979: 3/125-126.

(15) Islam Ansiklopedisi.Turkiye Diyanet vakfi.: 11/53216.

(١٦) المرجع السابق.

وتعد هذه الرحلة مصدرًا أساسًا لكثير من الباحثين العاملين في الدراسات التاريخية العثمانية، بالنظر إلى ما يذكره من معلومات، وما يأتي به من إحصاءات تتعلق بالأوضاع العامة التي عاش فيها المؤلف، سواء الثقافية أو السياسية أو الاجتماعية.

تعد هذه الرحلة مصدرًا أساسًا لكثير من الباحثين العاملين في الدراسات التاريخية العثمانية

وقد ترك أوليا جلبي بعض الأماكن فارغة، بغية التأكد منها فيما بعد، إلا أنها بقيت كما هي، ولعله لم يتمكن من ذلك.

وقد وجهت بعض الانتقادات العلمية للدور التي قامت بنشر الكتاب، فقد حذفت بعض الأشياء، وتصرفت في اللغة والأسلوب(١٧). من دور النشر تلك: دار الإقبال، ودار ظهوري دانشمان، ودار أوج دال(١٨).

هذا وقد تميزت رحلة أوليا جلبي ببعض الخصائص، منها:

١ - اشتمالها على أخبار ثقافية وتاريخية واجتماعية كثيرة عن الأماكن التي زارها المؤلف، مما يدل على ثقافته العامة، واطلاعه الواسع، وتجربته في فنون عدة، وخبرته في كثير من أمور الحياة.

٢ - دقته التاريخية في تدوين الأخبار الخاصة بالمناطق التي زارها. من ذلك حديثه عن فتح جزيرة رودس عام ٩٢٩هـ (١٥٢٢م)(١٩)،

---

(17) Evliya Celebi Seyahatnamesinin Turkiyede Yapilan Yayinlarina Bir Bakis /Hayati Develi.- Turk Kulturu.- Sayi.527 (Kasim 1995). Ss.1239-1244.

(١٨) المرجع السابق. ص ١٢٤١ .

(19) Evliya Celebi Seyahatnamesi.Haz.Zuhuri Danisman.-Istanbul: Zuhuri Danisman yay.1971:9/5.

وقارن بينها وبين: Osmanl_ Padisahlari Ansiklopedisi/Yavuz Bahadiroglu. Istanbul: Yeni Asya yay. (19) 86:1/233.

وإخماد ثورة الدروز بعد أن هاجمهم مصطفى باشا عام ١٠٥٩هـ(٢٠).

٣ - رجوعه إلى كثير من مصادر التاريخ الإسلامي باللغة العربية، لفهم أوضاع المناطق التي زارها والتي كتب عنها. مثل تاريخ الطبري والمقريزي والذهبي ونحوها. ولهذا السبب فقد اعتمد عليه كثير من المؤرخين والكتاب الذين جاؤوا بعده، وعملوا مقارنات بين وصفه لبعض البلاد وما عليه في الوقت الحاضر، وبنوا على إحصاءاته دراساتهم. من ذلك ما أورده برناردلويس في كتابه(٢١) بشأن وصف مجمل لما ذكره أوليا جلبي بشكل مفصل عن نقابات إستانبول البالغة مئات الصفحات، التي تعطي صورة حية زاهية لحياة العاصمة العثمانية مختلفة الألوان والأشكال.

محتوى الرحلة:

تقع رحلة أوليا جلبي في عشرة مجلدات من القطع المتوسط. ولها نسخ عدة مخطوطة في مكتبات إستانبول، منها:

١ - نسخة في مكتبة ملّت بحي الفاتح بإستانبول، ضمن مجموعة برتَو باشا، تحت الرقم ٤٥٨-٤٦٢.

٢ - نسخة مكتبة السليمانية بإستانبول، ضمن مجموعة كتب بشير آغا، تحت الرقم ٤٤٨-٤٥٢.

٣ - نسخة مكتبة قصر طوب قابي بإستانبول، ضمن مجموعة كتب قصر روان وقصر بغداد، تحت الرقم ٣٠١، ٣٠٣-٣٠٥، ٣٠٩. وهناك نسخ أخرى للكتاب(٢٢). مثل نسخة قصر بغداد، تحت

---

(٢٠) المرجعان السابقان: الأول: ٢١٧/١، الثاني: ٤١٨/٢-٤١٩.

(٢١) إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية/ برنارد لويس؛ ترجمة سيد رضوان علي.

(22) Evliya Celebi Seyahatnamesi.: 1/11-12.

وأوليا جلبي سياحتنامه سي. طبعة إقدام. المجلد الأول، ص هـ (من المقدمة).

الرقم ٣٠٥، و٣٠٧، والمجلدات المكملة لها في قصر روان، تحت الرقم ١٤٥٧.. وغيرها.

وقد طبعت الرحلة طبعات عدة أيضًا، منها:

١ – طبعت أول مرة في مطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٨٤٨م بعنوان: منتخبات أوليا جلبي.

٢ – طبعة درا إقبال في إستانبول. إذ طبع منها ستة مجلدات في المدة من ١٨٩٦م إلى ١٩٠٢م. ثم طبع المجلد السابع والثامن من لدن مجمع التاريخ التركي عام ١٩٢٨م. وقد صدرت كل هذه المجلدات الثمانية بالتركية العثمانية، أما المجلد التاسع فقد نشر من لدن مجمع التاريخ التركي أيضًا عام ١٩٣٥م(٢٣). والعاشر من لدن وزارة المعارف التركية عام ١٩٣٨م، وقد صدر المجلدان الأخيران بالتركية الحديثة.

٣ – الطبعة التي اعتنى بها ظهوري دانشمان التي صدرت من الدار التي سماها باسمه في إستانبول، وذلك عام ١٩٦٩–١٩٧٠م. وقد صدرت أيضًا في عشرة مجلدات(٢٤).

٤ – طبعة دار أوج دال بإستانبول عام ١٩٨٥م(٢٥). وتقع أيضًا في عشرة أجزاء (ستة مجلدات)، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها بشكل أساس في إعداد هذا البحث.

٥ – الطبعة التي اعتنى بها رشاد أكرم جوجو في إستانبول عام

---

(23) Islam Ansiklopedisi.Turkiye Diyanet vakfi. Istanbul: 1995.

(24) Evliya Celebi Seyahatnamesi.Kisaltarak Haz.Zuhuri Danisman. Istanbul: 1969-1970.

وتوجد من هذه الطبعة نسخة في مكتبة دارة الملك عبد العزيز بالرياض.

(25) Evliya Celebi Seyahatnamesi. Istanbul:Ucdal nesriyat 1975.

وتوجد من هذه الطبعة نسخة في قاعة الكتب العثمانية والتركية بمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

١٩٤٣-١٩٥١م. وقد صدرت في خمسة مجلدات(٢٦).

٦ - الطبعة التي أصدرها نهاد أوزاون في ثلاثة مجلدات عام ١٩٤٤-١٩٤٥م.

٧ - الطبعة التي أصدرها توفيق تمل قوران ونجاتي آقتاش. وقد صدر المجلد الأول منها عام ١٩٧٥م، والمجلد الثاني عام ١٩٧٦م(٢٧). وهناك طبعات أخرى للكتاب.

كما نشرت منتخبات من الرحلة، منها:

١- أجمل القطع من رحلة أوليا جلبي، جمعها محمد آقسوي، وسرور إسكيت. ١٩٦٢م(٢٨).

٢- منتخبات من رحلة أولياء جلبي. أعدها نهال آتسز. ١٩٧١-١٩٧٢م(٢٩).

وقد ترجم المجلد الأول والثاني من الرحلة إلى اللغة الإنجليزية من لدن هاممر في لندن في عامي ١٨٣٤-١٨٥٠م، بعنوان:

Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa.by Evliya Efendi

كما أن القسم المتعلق بالمجر قد ترجم إلى اللغة المجرية من لدن كاراجون(٣٠).

---

(26) Evliya Celebi Seyahatnamesi. Haz.Resat Ekrem Cocu. Istanbul: 1943-1951.

(27) Evliya Celebi Seyahatnamesi.Sadelestiren:Tevfik Temel Kuran, Necati Aktas.Istanbul:1975-1976.

(28) Evliya Celebi Seyahatnamesinden En Guzel Parcalar.Derleyen: Mehmet Aksoy, Server Iskit. 1962.

(29) Evliya Celebi Seyahatnamesinden Secmeler.Haz.Nihal Atsiz.Istanbul: 1971-1972.

(30) Osmanli Turklerinde Ilim/A.Adnan Adivar.-4.Baski.-Istanbul: Remzi kitabevi, 1982. S.152-153.

وبالإضافة إلى ذلك فقد جرت بعض الدراسات العلمية(٣١) أيضًا على رحلة أوليا جلبي. منها : دراسة نقدية للمجلد الأول من رحلة أوليا جلبي، من إعداد مشكورة كوك آي(٣٢).

تضمنت رحلة أوليا جلبي الموضوعات الآتية:

الجزء الأول: خصصه عن مدينة إستانبول، وسنة إنشائها وعدد منشئيها وبناء قلعتها، وأوصافها من الداخل والخارج، ثم تعرضها للحروب في مختلف حقب التاريخ، وفتحها على يد السلطان محمد الثاني ابن مراد الثاني عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. وقصة الفتح وكيف تم. وقد أفاض الرحالة في الحديث عن إستانبول. ثم انتقل إلى الحديث عن أحداث الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني، والأراضي التي اقتطعها لتكون أوقافًا على الحرمين الشريفين، ومنها قيامه بإصلاح قناة عين زبيدة المائية التي أصيبت بالدمار والخراب، والأوقاف التي خصصها للمذاهب الأربعة في مكة المكرمة، والأموال التي كان يرسلها لأهالي الحرمين الشريفين التي كان يحصلها من غير المسلمين في الدولة العثمانية بدلاً من القيام بأداء الخدمة العسكرية. ثم تحدث عن أهم شخصيات عهد السلطان سليمان القانوني، سواء من أركان الدولة أو العلماء والحكماء البارزين، وقوانينه الخاصة بمختلف الاقطاعات العسكرية. كما تحدث أيضًا عن تاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني ابن سليمان (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) ومراد الثالث ابن سليم الثاني (٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) ومحمد الثالث ابن مراد الثالث (١٠٠٣-

---

(٣١) بشأن الدراسات التركية والغربية الكثيرة التي أجريت على رحلة أوليا جلبي. انظر:

Islam Ansiklopedisi.T.D.V: 11/533.

(32) Evliya Celebi Seyahatnamesi 1. Cildinin Me'hazlari Uzerine Bir deneme.Istanbul: Ist.Unv. Edebiyat Fak. Tarih Bolumu, 1951 (yayinlanmamis Doktora tezi).

١٠١٢هـ/١٥٩٥-١٦٠٣م)، وأحمد الأول ابن محمد الثالث (١٠١٢-١٠٢٦هـ/١٦٠٣-١٦١٧م)، إلى عهد محمد الرابع ابن إبراهيم (١٠٥٨-١١٠٤هـ/١٦٤٢-١٦٩٣م).

الجزء الثاني: وقد ابتدأ فيه بالحديث عن رحلته إلى بورصا عام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م، إذ تحدث عن الرحلة وعن الأماكن التي مر بها في الطريق، ثم شرع في بيان تعداد أوصاف مدينة النسيج بورصا، وما فيها من آثار تاريخية وعمرانية من جوامع ومساجد ومبان وقلاع وحمامات ونواعير وأسواق، مبرزًا مكانتها في التاريخ العثماني. ثم انتقل أوليا جلبي للحديث عن أحداث التاريخ العثماني في عهد مراد الأول (٧٦١-٧٩١هـ/١٣٦٠ - ١٣٨٩م)، وابنه بايزيد (٧٩١-٨٠٥ هـ/١٣٨٩-١٤٠٢م)، ثم ابنه جلبي محمد (٨١٦-٨٢٤ هـ/١٤١٣-١٤٢١م). وأشار إلى أماكن النزهة والزيارة في البلد، ثم ذكر أحداث الرحلة من بورصا إلى إستانبول، ومنها إلى بعض البلاد الشرقية مثل أرضروم وبعض المدن الإيرانية، وأورد معلومات عن عادات الفرس وتقاليدهم، وبعض مظاهرهم الاجتماعية وآثارهم التاريخية، ثم أشار إلى المواقع التي مر بها أوليا جلبي في طريقه إلى جورجيا وتفليس، وبين شجرة أمراء الجورجيين، وأهم الآثار التاريخية في المنطقة من جوامع وقلاع ومبان، ثم ذكر رحلة العودة إلى إستانبول في شتاء عام ١٠٥٧هـ، وكانت في شهر ذي الحجة. وختم الكاتب المجلد الثاني من الرحلة بذكر منازل الطريق من إستانبول إلى الشام، وذلك ضمن الحديث عن رحلته إلى الشام مع السلاحدار مصطفى باشا عام ١٠٥٨هـ (١٦٤٨م).

الجزء الثالث: وقد خصصه لرحلته من الشام إلى صيدا عام ١٠٥٩هـ (١٦٤٩م)، والمواقع التي مر بها، وفصّل القول في التوجه إلى صيدا بصحبة عساكر ولاية الشام تحت قيادة مرتضى باشا لتسلم الأموال التي بقيت في ذمة أولاد معن بلبنان، فقد كانوا يرفضون

دفعها، فوصف مشاهداته في أثناء الطريق وما صادفهم فيها من الأمور الغريبة والعجيبة. وقد أشار إلى الجبال والوديان والأنهار الواقعة على الطريق. ووصف الأماكن المعروفة في المنطقة، والمدن الفلسطينية التي مر بها في التاريخ المذكور، مثل صفد وعسقلان وغزة. ثم انتقل إلى الحديث عن رحلة العودة إلى الأناضول بعد مغادرة الشام عام ١٠٥٩هـ (١٦٤٩م) عن طريق الرها، ومنها إلى قيصري وسيواس، ثم توجهه بعد ذلك إلى دياربكر برفقة مرتضى باشا، لتحصيل بعض الأموال فيها من حاكمها. ووصف في هذا الصدد المدن الشرقية من تركيا، أفاض الحديث عنها. ثم انتقل إلى الحديث عن طريق العودة إلى إستانبول عام ١٠٦٠هـ (١٦٥٠م) وقد نصب فيها ملك أحمد باشا صدرًا أعظم للدولة العثمانية في تلك المدة. وقد تحدث أوليا جلبي عن أوضاع الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الرابع، وركز على السياسة الإدارية والاقتصادية التي اتبعها الصدر الأعظم الجديد، ثم أشار إلى عزله من هذا المنصب، والأسباب التي أدت إلى ذلك. ثم انتقل إلى الحديث عن مدن البلقان التي توجه إليها عام ١٠٦٢هـ (١٦٥٢م) وذلك برفقة ملك أحمد باشا المعزول من الصدارة، ووصف تلك المدن التي مر بها، مثل فليبه، وصوفيا، وذكر عدد أحيائها السكنية، ومحلاتها التجارية، وعدد الجوامع والمساجد فيها، وأشار إلى خصائص كل مدينة وأماكن التنزه فيها، ثم تحدث عن العودة إلى إستانبول في شهر شعبان من عام ١٠٦٣هـ (١٦٥٢م) ثم مكوثه فيها ومغادرته إياها في شهر جمادى الأولى من عام ١٠٦٥هـ (١٦٥٤م)، متوجهًا إلى مدينة وان في شرق تركيا، وذلك بصحبة الصدر الأعظم السابق ملك أحمد.

الجزء الرابع : وفيه تفصيل رحلته من إستانبول إلى مدينة وان، ثم إلى إيران برفقة بعض رجالات الدولة العثمانية. وقد تحدث أوليا جلبي عن المواقع التي مروا بها في هذه الرحلة، وأوصافها، وأهم

الشخصيات التي قابلوها، كما ذكر رحلته إلى كردستان والمدن الكردية التي زارها، وأوضاع الناس في هذه المنطقة، وأشار إلى القلاع التاريخية الحصينة في المنطقة، وذكر نبذة تاريخية عن بعض معالمها الأخرى. كما تحدث كذلك عن الوضع الجغرافي للمنطقة من أنهار وبحيرات ومنابع مياه، ذاكرًا خصائص كل بلدة، والأكلات الشعبية الشهيرة فيها، وبعض الصناعات الخفيفة والفنون اليدوية في بعض المناطق التي زارها أوليا جلبي، ثم انتقل إلى الحديث عن عودتهم إلى إستانبول.

الجزء الخامس: ويتناول فيه أوليا جلبي تكملة الرحلة التي قام بها إلى مدينة وان، ثم بدليس وبعض البلاد الشرقية الأخرى التي تم تفصيلها في الفقرة السابقة. وذلك في طريق العودة إلى إستانبول عام ١٠٦٦هـ (١٦٥٥م). وقد ذكر الرحالة أنه بعد وصولهم إلى إستانبول توجه مع أفراد الجيش العثماني إلى بولندا عام ١٠٦٧هـ (١٦٥٦م)، والدخول إلى الحدود الروسية، وعرض الأحداث التي جرت معهم في تلك الرحلة، وبعض الأوضاع السياسية في إستانبول والأناضول في تلك المدة، ثم رحلته إلى بغدان (الجبل الأسود) عام ١٠٧٠هـ (١٦٥٩م)، والأسباب التي أدت إلى قيام أهل الأفلاق بالثورة ضد العثمانيين، والأوضاع العامة في البوسنة والهرسك، والقلاع الموجودة فيها، وأعطى المؤلف وصفًا عامًا لبعض المدن الرومانية.

الجزء السادس: وقد خصصه أوليا جلبي لرحلته إلى المجر وألمانيا وهولندا والسويد والبلاد التي زارها في أوربا عام ١٠٧١هـ (١٦٦١م)، ثم اشتراكه في المعارك التي خاضتها الدولة العثمانية في أوربا في تلك المدة، كما أشار إلى وفاة ملك أحمد باشا عام ١٠٧٢هـ (١٦٦٢م)، والذي كان يرافقه الرحالة في أغلب سفرياته. وقد أورد ترجمة مفصلة له. ثم انتقل أوليا جلبي إلى الحديث عن أحداث

الدولة العثمانية في عام ١٠٧٣هـ (١٦٦٣م) وتوجهه إلى بلاد الأنكروس (المجر). وقد وصف المناطق التي مر بها من حيث البناء والعمران، والوضع الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة. ثم ذكر بعد ذلك أحداث حصار قانيجة ووصف المعركة التي جرت بين الدولة العثمانية والمجر، وأشار إلى أهم القلاع الموجودة في بلاد الكروات والسلفانيين وبيان لفتحها.

الجزء السابع : وفيه تكملة لرحلة المؤلف إلى أوربا، فقد ذكر معلومات مفصلة عن جزيرة بلاتين حسب المصادر المجرية والنمساوية واليونانية واللاتينية التاريخية، وتخليص قلعة أستونلي بلجراد من يد العدو، والمعركة التي جرت بين الجيش العثماني وعساكر الكفار بالقرب من نهر رابه، ثم المعارك التي جرت في بلاد الألمان، وانتقل منها إلى الحديث عن بلاد المجر وقلاعها وحصونها، والأماكن الواقعة بينها وبين أيالة تيمشوار، كما ذكر الرحالة منازل الطريق بينها وبين ولاية الأفلاق، ووصف هذه الولاية من حيث البناء والعمران والاقتصاد، ثم انتقل إلى الحديث عن القرم وداغستان وبخارى وخراسان إيران، ووصف المواقع التي كانت على طريق رحلته، ثم عودته إلى إستانبول عام ١٠٧٧هـ (١٦٦٦م).

الجزء الثامن : وقد تحدث فيه أوليا جلبي عن رحلته مع خان القريم إلى بخجه سراء، ونبذة عن خانات القريم، ثم العودة إلى أدرنه ومراحل الطريق بينها وبين بعض المدن اليونانية، كما تحدث عن مدينة سلانيك. وانتقل إلى الحديث عن رومانيا ورحلته إليها عام ١٠٧٨هـ (١٦٦٧م)، وذكر معلومات عن كريد وألبانيا وغيرهما من البلاد الأوربية، ثم ذكر أحداث رحلته إلى إستانبول، والبدء برحلة جديدة إلى أوساط الأناضول. كما تحدث في هذا الجزء عن أسباب رحلته إلى الحج عام ١٠٨١هـ (١٦٧٠م)، فقد ذكر تفصيلات ذلك في الجزء التاسع من الرحلة. وتناول فيه كيفية مغادرته لمدينة إستانبول

متوجهًا إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، والمواقع التي مر بها في طريقه إلى الحجاز بشيء من التفصيل.

الجزء التاسع والعاشر: وقد خصصهما المؤلف لبيان تفاصيل رحلته إلى الحجاز ثم مصر فالسودان.

مشاهداته في الحجاز:

لقد تناول الرحالة أوليا جلبي تفاصيل رحلته من الشام إلى الحجاز في الجزء التاسع من الكتاب. ويقع ما يخص تلك الرحلة في سبع وتسعين صفحة (من الصفحة ١١٣ حتى الصفحة ٢١٠)، وذلك منذ خروجه من الشام في العشرين من شوال من عام ١٠٨١هـ (١٦٧١م)، حتى وصوله إلى مكة المكرمة، ثم القيام بأداء فريضة الحج والانتهاء من المناسك، ثم خروجه من مكة المكرمة متوجهًا إلى مصر في ٢٦ ذي الحجة عام ١٠٨٢هـ (١٦٧٢م)، وذلك بموجب الطبعة التي اعتمدنا عليها، وهي طبعة أوج دال. وهذا يدل على أن الرحالة قد قضى أكثر من سنة، سواء في الرحلة إلى الحجاز أو المكوث فيه. غير أن ما ذكره الرحالة يعارض هذا الرأي؛ لأنه فصل القول في الحديث عن فريضة الحج، ثم ذكر مغادرته الحجاز بعد الانتهاء من المناسك مباشرة. ولم يشر إلى المكوث في الحجاز بعد حج ذلك العام.

١ - منازل الطريق إلى مكة المكرمة:

لقد عرض أوليا جلبي منازل الطريق من الشام إلى مكة المكرمة على النحو الآتي، علمًا أن بعض أسماء منازل الطريق تختلف في المراجع الأخرى عما أورده أوليا جلبي في رحلته(٣٣):

---

(٣٣) قارن على سبيل التمثيل بينها وبين ما ورد في غرائب البدائع وعجائب الوقائع، لمؤلفه حسن الشهير بابن الصديق. تحقيق ودراسة يوسف نعيسة، دمشق: دار المعرفة، ١٤٠٩هـ. ص ١٠٨؛ و منازل الطريق بين المدينة ومكة/صالح أحمد العلي، الدارة، س٣، ع٤ (ربيع الأول ١٣٩٧هـ/فبراير ١٩٧٧م)، ص ١٨-٦٥ .

- منزل قصر أحمد باشا الصغير، ويبعد عن الشام مسافة ساعة واحدة. (ص ١١٤).
- منزل قرية الكسوة، وهو يبعد عما قبلها مسافة أربع ساعات. ويحوي مئتي منزل، وجامعين ومسجدًا، وحمامًا وفندقًا. ومعظم أهاليها يعيشون على النقليات بالإبل. وله ماء عذب يمر من وسط القرية يسمى بالاسم ذاته (نبع الكسوة). وذكر أن أثرياء الشام يشربون منه. (ص ١١٤).
- منزل فندق طرخنة: ولايذكر الرحالة المسافة بينه وبين المنزل الذي قبله. غير أنه أشار إلى أن الحجاج في طريق عودتهم من الحج يقفون في هذا المنزل؛ إذ يوزع عليهم الحساء الساخن، وطبق يسمى العاشوراء. (ص ١١٤).
- منزل قلعة الصنمين، ويبعد عما قبله مسافة عشر ساعات. وهي قلعة صغيرة تقع بالقرب من بحيرة صغيرة. وتحوي منازل لعربان معفون من الضرائب. وبها مسجدان وحمام وفندق. وذكر أن النبي ﷺ أرسل أفرادًا من الجيش بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه لفتحها، وأنهم فتحوها ورموا بالصنمين الموجودين على برج القلعة في البحيرة بعد كسرهما. وأن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - قد استشهدوا في هذه المعركة. وقد أشار إلى أن القافلة مرت بقرية درعا التي تقع بعد قلعة الصنمين مسافة ساعة واحدة. (ص ١١٤).
- منزل قرية بُصرى الصغرى: ولا يذكر الرحالة المسافة بينه وبين قرية درعا. غير أنه يشير إلى أن هذه القرية تحوي ثلاثين منزلاً ومسجدًا جامعًا ذا مئذنتين، وأنها تبعد عن قرية بُصرى التي مر بها النبي ﷺ مسافة خمس ساعات. (ص ١١٤).

- منزل الكتيبة(٣٤): وهو يبعد عما قبله مسافة اثنتي عشرة ساعة. ويقع في صحراء حوران، كان عامرًا فيما سبق. وذكر أن به نبع ماء، يتزود الحجاج منه. كما أشار إلى أن أراضي هذه المنطقة خصبة للغاية، وفيها سبعة أنواع من القمح ومثله الشعير. (ص ١١٥).
- منزل قلعة مزيريب: وهو يبعد عن المنزل الذي قبله مسافة خمس عشرة ساعة. وقد ذكر الرحالة أن هذه القلعة بنيت في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأن قاضي حوران يقيم فيها، ويتبعها (٢٧٠) قرية. وتحوي القلعة مسجدًا جامعًا وحمامًا صغيرًا ومستودعًا لحفظ بعض أموال الدولة والتجار. (ص ١١٥).
- منزل نهر حوريان (لعله حوران): وقد ذكر أوليا جلبي أن الحجاج توقفوا في الضفة المقابلة للنهر، وأقاموا فيها مخيماتهم، وأنهم مكثوا فيها عشرة أيام. وأشار إلى أن أهالي المنطقة يستفيدون من الحجاج في هذا الموقع؛ إذ يعرضون بضائعهم التجارية. (ص ١١٥).
- منزل قرية النوى: وهو يبعد عما قبله بثلاث ساعات. وقد ذكر الرحالة أن هذه القرية تضم ثلاثمئة منزل ومسجدًا جامعًا. (ص ١١٧).
- منزل قرية طورنة: ولا يذكر أوليا جلبي المسافة بينه وبين المنزل الذي قبله. وقد أشار إلى أن القرية تتكون من مئتي منزل ومسجد جامع. (ص ١١٧).
- منزل قلعة مزرق: وهو يبعد عما قبله مسافة اثنتي عشرة ساعة.

---

(٣٤) ذكر أن المسافة بين هذا المنزل والذي قبله وهو خان دنون ثماني ساعات. ولعل السبب في هذا الاختلاف هو كون أوليا جلبي كان يقطع الطريق بالإبل مع قافلة الحج. وهذا ينطبق على معظم المسافات بين ما أورده أوليا جلبي وما ورد في غيرها من المراجع.

وقد أشار إلى أن هذه القلعة بنيت من لدن سلطان بني هلال، وأن واديها خصب، وتكثر فيه المياه. (ص ١١٨).

- منزل قلعة عين زرقاء: وهو يبعد عما قبله مسافة ثلاث عشرة ساعة. وقد أشار إلى أن هذه القلعة بنيت على قطعة صخرية مربعة، وأنه لا يقيم فيها أحد. (ص ١١٨).
- منزل تبريكة: وأشار الرحالة إلى أنهم تعرضوا لمطر شديد في هذا المنزل. (ص ١١٨).
- منزل معبر بلقاء: وذكر أوليا جلبي أنهم أمطروا فيه مطرًا شديدًا، مات من جرائه بعض الحجاج والدواب. (ص ١١٨).
- منزل صحراء بلقاء: وذكر الرحالة أنهم قضوا ليلتهم فيه ببرد شديد، حتى إن المياه الموجودة بالقِرَب تجمدت. (ص ١١٩).
- منزل قلعة قطران: وهو يبعد عما قبله مسافة أربع عشرة ساعة. وأشار إلى أن هذه القلعة مربعة، وأنها تضم سبع منازل. (ص ١١٩).
- منزل قلعة الكرك: وهو يبعد عما قبله مسافة ساعتين. وقد ذكر أوليا جلبي أن سنجق الكرك تابع لأيالة القدس، ويتبعها سبعون قرية، وقد تم بناؤه في عهد العباسيين، وتم تسليم مفتاحه للسلطان سليم عام ٩٢٢هـ. وأشار إلى أن قلعتها خماسية الشكل، وأن قلعة ظاهر بيبرس في هذا الموقع متينة للغاية، وتضم (١٥٠) منزلاً ومسجدًا جامعًا. (ص ١١٩).
- منزل التابوت: وهو يبعد عما قبله مسافة أربع عشرة ساعة. ويخلو هذا الموقع من المنازل. (ص ١٢٠).
- منزل عنزة: وهو يبعد عما قبله مسافة ثلاث عشرة ساعة. وقد أشار أوليا جلبي إلى أنه يقع في صحراء ويخلو من المنازل. وهو في منطقة شيوخ الحويطات. (ص ١٢٠).

- منزل قلعة معان: وهو يبعد عما قبله مسافة إحدى عشرة ساعة. وقد أشار الرحالة إلى أن هذه قلعة صغيرة، وهي تحوي منازل للعربان، وأهالي المنطقة أثرياء. (ص ١٢٠).
- ومنزل العقبة: وهو يبعد عما قبله مسافة ست عشرة ساعة. (ص ١٢٠).
- منزل قلعة نبع النبي: وهو يبعد عما قبله مسافة عشر ساعات. وقد أشار أوليا جلبي إلى أن القلعة بنيت في عهد معاوية، ويقيم فيها مئتا فرد من العساكر، وفيها غرف للسكن، ومسجد، وحمام. (ص ١٢١).
- منزل باسط البيعتية: وهو يبعد عما قبله مسافة سبع ساعات. (ص ١٢١).
- منزل قلعة عاصي خورمة: وهو يبعد عما قبله مسافة اثنتي عشرة ساعة، ويقع في وسط الطريق إلى مكة. وقد ذكر أوليا جلبي أن القلعة بنيت من لدن نور الدين الشهيد، وأن السلطان محمد الرابع قام بترميمها، إذ كتب على بابها: "في أيام مولانا السلطان محمد خان بن إبراهيم خان مد ظله... ١٠٦٢هـ" (١٦٥١م). (ص ١٢١).
- منزل المقابر: ويبعد عما قبله مسافة سبع ساعات. (ص ١٢١).
- منزل قلعة حيدر: وهو يبعد عما قبله مسافة ثماني عشرة ساعة. وذكر الرحالة بالاستناد إلى رواية الأهالي أن القلعة من بناء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأشار إلى أن وزير الشام حيدر باشا قام بترميمها فيما بعد. وهي قلعة مربعة الشكل، وتحوي ما بين أربعين إلى خمسين غرفة، وفيها مسجد. وذكر أن حجاج مصر أيضًا يمرون من هذه القلعة. (ص ١٢٢).
- منزل قلعة شيرين المعظمة: وهو يبعد عما قبله مسافة ثماني عشرة ساعة. وقد ذكر الرحالة أن السلطان مراد الثالث قام ببناء

هذه القلعة عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م)(٣٥). إلا أنها تخلو من العساكر. (ص ١٢٢).

- منزل شق العجوز: وهو يبعد عما قبله ثماني عشرة ساعة. (ص ١٢٢).
- منزل عَقيت الرمال: ويقع بالقرب من مضيق صحراء النقب. وقد أشار الرحالة إلى أن النبي صالح - عليه السلام - كان يعيش في هذا الموقع. كما ذكر سبب تسمية الجبل بالناقة، بأنه نظرًا لخروج الناقة منه. وذكر أن أبيار صالح تقع بعد هذا المنزل بمسافة ساعة واحدة. وقد عرف بوادي العتيق ووادي الصفراء ووادي القراء. (ص ١٢٢).
- منزل مدينة صالح: وقد تحدث أوليا جلبي عنها، وعن مبانيها الصخرية الغريبة، وذكر أنه تجول فيها مدة ساعة من الزمن، ونقل بعض الكتابات القديمة الموجودة عليه بغية تبييضها فيما بعد، وفك رموزها. (ص ١٢٣).
- منزل قلعة دب الجزل: وذكر الرحالة أنه يبعد عن مزار ثمود ألف خطوة. وبجوارها قرية الجزل. (ص ١٢٣).
- منزل قلعة العلاة: وهو يبعد عما قبله مسافة خمس ساعات. وقد ذكر أوليا جلبي أن القلعة من بناء هود - عليه السلام - وأن معزالدين الفاطمي قام بترميمها عام ٢٥٨هـ (٨٧٢م)، وهي مثلثة الشكل. ويوجد بها عشرة منازل، وأن أهاليها على المذهب المالكي. وقد أشار إلى بساتينها، وأنواع الفواكه التي تثمر فيها. (ص ١٢٣-١٢٤).
- منزل بئر زمرد: وهو يبعد عما قبله مسافة ست عشرة ساعة. (ص ١٢٥).

---

(٣٥) الصحيح أن السلطان مراد الثالث تولى الحكم في الدولة العثمانية عام ٩٨٢هـ (١٥٧٤م). Osmanli Padisahlari Ansiklopedisi/ Yavuz Bahadiroglu.-:2/311.

- منزل البئر الجديد: ويبعد عما قبله مسافة سبع عشرة ساعة. وقد أشار إلى أن هذا البئر من بناء والدة السلطان محمد الرابع عام ١٠٨١هـ (١٦٧٠م). (ص ١٢٥).
- منزل نبع الهدية: وهو يبعد عما قبله مسافة سبعين ساعة حسبما ذكره الرحالة. (ص ١٢٦).
- منزل قلعة فحلتين، أو السلام، نسبة إلى أن النبي ﷺ لما مر من هنا سلم على الجبل فرد عليه، فأطلق عليه من يومه "السلام"، وهو يبعد عما قبله مسافة خمس عشرة ساعة. (ص ١٢٦).
- منزل وادي القرى القديم، ويقال لها: المدينة العتيقة، وهو يبعد عما قبله مسافة تسع عشرة ساعة. (ص ١٢٦).
- منزل دار الوداع ووادي الاستقبال، ويقال لها: دار الحزن أيضًا. وقد ذكر أوليا جلبي أن أهالي المدينة يستقبلون الحجاج من هذا الموقع. كما أشار إلى أن منازل الطريق حتى هذا الموقع أربعة وعشرون منزلاً(٣٦)، وأنهم قطعوها خلال ثلاثمئة وخمسين ساعة؛ نظرًا لمسير الإبل. وذكر أنه يمكن قطع كل هذه المنازل خلال مئة ساعة بالخيل، إذا توفرت المواد الغذائية اللازمة، وكان الطريق معبدًا. (ص ١٢٦-١٢٧).
- منزل أبيار علي: وهو يبعد عن المدينة المنورة مسافة ساعتين، ويحوي أحواضًا للمياه المستخرجة من هذه البئر الكبيرة. وقد ذكر أوليا جلبي أنه محاط ببساتين يملكها أهالي المدينة المنورة. وقد شرح الرحالة كيفية الدخول في الإحرام، والأدعية التي تقرأ عند ذلك. (ص ١٤٥).

---

(٣٦) ينبغي أن يفرق هنا بين المنزل والموقع؛ فالمنزل ما تقطعه الراحلة أو المسافر في مرحلة واحدة، كأن يكون من الصباح إلى الظهر، أما الموقع فيختلف هنا عن المنزل؛ لأن المسافر قد يقطع مواقع عدة في مرحلة واحدة.

- منزل مقبرة الشهداء: وهو يبعد عن أبيار علي مسافة اثنتي عشرة ساعة. (ص ١٤٥).
- منزل الجُديدة: وهو يبعد عما قبله مسافة ثلاث عشرة ساعة. وقد ذكر أوليا جلبي أن جديدة بلدة عامرة بالمباني والبساتين، وفيها سوق صغير ومسجد جامع وحمام. كما أشار إلى الأماكن التاريخية في محيط هذا المنزل. (ص ١٤٦).
- منزل قلعة بدر: وهو يبعد عن الجديدة مسافة ثماني عشرة ساعة. وقد تحدث فيه الرحالة عن غزوة بدر التي وقعت في هذا الموقع. وأشار إلى وجود غار النبي ﷺ على بعد خمسمئة متر باتجاه القبلة من هذا المنزل. وقد ذكر أوصاف بدر. (ص ١٤٧).
- منزل سبيل ميمونة بنت الحارث: وهو يبعد عما قبله مسافة أربع عشرة ساعة. وقد أشار الرحالة إلى أن هذا الماء السبيل ما زال جاريًا. (ص ١٤٧).
- منزل بلدة نبع ربيعة: وهو يبعد عن سبيل ميمونة مسافة ثماني عشرة ساعة. وقد ذكر أن البلدة تحوي أكثر من مئتي منزل، ومسجدًا جامعًا، وأكثر من خمسين دكانًا، كما أشار إلى أنها الموقع الذي يحرم منه حجاج مصر. (ص ١٤٨).
- منزل قلعة البركة: وهو يبعد عن نبع ربيعة مسافة أربع عشرة ساعة. وقد ذكر أوليا جلبي أنه لم يلق في طريقه إلى الحج بركة أكبر من هذه. وأشار إلى أن مياه عين زرقاء هي التي تصب في البركة. كما ذكر أن بها مسجدًا صغيرًا، كتب على محرابه أن "السلطان مراد بن السلطان أحمد قام ببناء البركة عام ١٠٤٨"هـ (١٦٣٨م). (ص ١٤٨).
- منزل قرية وادي فاطمة: وهو يبعد عن منزل البركة إحدى وعشرين ساعة. وقد ذكر أن القرية تتكون من مئتي منزل، وبه

مسجد جامع، وهي محاطة بأشجار عالية. كما أشار إلى أن أراضي هذه المنطقة خصبة، وفيها مراع كثيرة. (ص ١٤٩).

- منزل مقام العمرة: وهو يبعد عن وادي فاطمة مسافة ثماني عشرة ساعة. وذكر الرحالة أن أهالي مكة المكرمة يستقبلون الحجاج من هذا الموقع الذي يحوي عشرة منازل وعشرة دكاكين. وقد تحدث كذلك عن السنن التي يؤديها الحجاج في هذا المنزل. (ص ١٥٠).
- منزل وادي فاه: وهو يبعد عما قبله مسافة ساعتين. وقد ذكر فيه أوليا جلبي أن كبار الشخصيات في مكة المكرمة من الأشراف أو شيخ الحرم أو غيرهم يأتون لاستقبال صرة الحجاج من هذا الموقع. الذي هو آخر منزل من منازل الطريق إلى مكة المكرمة، حسبما ذكره الرحالة. (ص ١٥٠).

٢ - أوضاع القبائل الواقعة على طريق الحج:

لقد ذكر أوليا جلبي أوضاع بعض القبائل التي تكفلت بنقل الحجاج من صحراء مزيريب إلى الحجاز. وأشار إلى أن تلك القبائل كانت تنتظر بخمسين ألف ناقة قدوم القافلة من الشام. ومن القبائل التي ذكرها الرحالة: (ص ١١٥)

آل عمر، آل رشيد، آل رياح، آل معان، آل خرنوش، آل ترابي، بني سالم، بني إبراهيم، بني سعيد، آل خرفج، بني زيد، بني صفر، بني عطية وعطا، بني زهد، بني واحدات.

وممن ذكرهم من شيوخ المنطقة شيوخ نابلس، وعجلون، وصفد، وعكا، والرملة، وغزة، والقدس، وخليل الرحمن، إلا أنه لم يورد أسماءهم؛ بل اكتفى بنسبتهم إلى قبائلهم. وأشار الرحالة إلى أن انتظار تلك القبائل بالعدد الضخم من الإبل لقدوم الحجاج من القوانين التي تم اتباعها منذ عهد السلطان سليمان. إلا أنه استدرك قائلاً: وينبغي على الحجاج أن يكونوا منتبهين غاية الانتباه لتصرفات

أفراد القبائل؛ فإن الحجاج إذا غفلوا عن أنفسهم وأمتعتهم مدة من الوقت، فقد يفقدونها. وقد تكرر ذلك منه كثيرًا؛ إذ إنه ذكر في موضع آخر أن العربان يبسطون بعض الأمتعة التجارية على طريق الحجاج للبيع. غير أنهم لا يتأخرون عن سرقة الحجاج إذا ما وجدوا الفرصة مواتية. وأشار في موضع ثالث إلى أنهم نهبوا الحجاج مرات عدة في منزل الكرك، مما ينبغي أن يحتاط للأمر. وذكر في موضع رابع أن أحد العربان سرق ناقة لأحد الحجاج في منزل قلعة معان، فقبض عليه وضربت عنقه. وفي موضع خامس من الرحلة ذكر أوليا جلبي أن العربان في منزل العلا هاجموا الحجاج ليلاً، فتمكن العساكر المرافقين للقافلة من القبض على بعضهم، وضرب عنق أربعين شخصًا منهم.

وبناءً على وضع العربان المذكور، فقد جعلت الدولة العثمانية مخصصات مالية لشيوخ العربان في المنطقة، بغية توفير الأمن اللازم لطريق الحجاج والزائرين المارين ببلادهم أو مناطق نفوذهم. وكان أمين الصرة(٣٧) يدفع تلك الأموال لأصحابها في أثناء مروره ببلادهم في التوجه إلى الحجاز. غير أن قائد قافلة حج تلك السنة حسين باشا قد تعامل مع القبائل بنوع من الحنكة. فلم يكن يدفع مخصصات العربان، بغية توفير طريق العودة؛ إذ كان يقول لهم: مخصصاتكم موجودة، إلا أنها ستدفع لكم في طريق العودة.

---

(٣٧) الصرة هي المبالغ المالية التي كانت تبعث بها الدولة العثمانية إلى مجاوري الحرمين الشريفين من حكام وسادة وأشراف وشيوخ قبائل وعلماء وفقراء. وكانت قافلة الصرة تخرج من إستانبول في الثاني عشر من شهر رجب من كل سنة متوجهة إلى الحجاز. وكان أمين الصرة هو المسؤول الأول عن توصيلها إلى الحجاز في الوقت المحدد. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية. مرجع سابق. ص ١٤٤ .

٣ - الأوضاع الاجتماعية في المدينة المنورة ومكة المكرمة:

أولاً: الأوضاع الاجتماعية في المدينة المنورة

ذكر أوليا جلبي أن معظم أهالي المدينة المنورة يشتغلون بالتجارة، وأن المدينة تُنار بالقناديل في شهور رجب وشعبان ورمضان، وأن أسواقها لا تغلق أبوابها. إلا أن يوم قدوم الحجاج يصبح عيدًا للأهالي. إذ يخرجون من البلدة الطيبة لاستقبال الحجاج بالقصائد والأناشيد، مقدمين لهم التمر قائلين: الحمد لله على السلامة، زيارتكم مقبولة إن شاء الله. وبما أن الصرة الهمايونية والهدايا تصل إلى المدينة المنورة مع قافلة الحج، فإن الأهالي ينتظرون قدومها بفارغ الصبر. وما أن يدخل الحجاج إلى البلدة حتى يصطف الناس على جانبي الطريق للسلام عليهم. وقد أشار الرحالة إلى فرحهم بقدوم الحجاج أنهم يلبسون أجمل ملابسهم ويدعون الحجاج إلى منازلهم لزيادة الإكرام.

وقد تحدث أوليا جلبي عن فقراء المدينة المنورة أيضًا، وذكر أن الصدقات تدفع لهم خفية؛ لأنهم إذا وجدوا الرجل يدفع الصدقة أحاطوا به من كل الجوانب، طالبين نصيبًا منها. (ص ١٢٧-١٢٨).

ثانيًا: الأوضاع الاجتماعية في مكة المكرمة

لقد تحدث أوليا جلبي عن بعض العادات الاجتماعية للأهالي في مكة المكرمة، وذكر معلومات عن معيشة الأهالي فيها، وأنها تعتمد في الغالب على الصرة التي يبعث بها السلطان العثماني، وعلى القمح والرز القادمين من مصر، ثم اليمن والزيلع وغيرهما. وذكر أنواع ما يطبخ في مكة، وأنها نظيفة وشهية، وأن أشهرها الهريسة. كما أشار إلى أن الفواكه الموجودة بها هي الحبحب والبطيخ والعنب والخوخ التي تجلب من مدينة العباس. وأن البلد الأمين لا يخلو من الفواكه صيفًا ولا شتاءً. وذكر أن مكة المكرمة

تحيط بها خمس عشرة مزرعة، هي الأماكن التي يتسامر فيها الأشراف. وبها تثمر أشجار النخيل والرمان والخوخ والليمون والترنج والعنب والنبك. كما ذكر أنواعًا من العطورات ولا سيما الورد والريحان والبخور. (ص ١٨٤).

وتحدث الرحالة عن أمزجة الأهالي في مكة المكرمة، فذكر أن بعضهم سريع الغضب، وأن معظمهم ضعفاء البُنية، بسبب تأثير الحرارة الشديدة والمياه فيهم. وأشار إلى أن معظم رجالها يخضبون لحاهم وأيديهم بالحناء، وأنهم لا يكثرون من الأكل. كما ذكر أن جلهم يتبع المذهب الشافعي، وفيها عدد قليل من الزيدية. غير أنه أشار إلى أن أهالي مكة المكرمة لا يشتغلون بالعلم، وإنما كلهم تجار. وقد أشار إلى وجود (١٣٠٠) محل تجاري في البلد الأمين، وثلاث مجمعات للأسواق، هي سوق الشام، والسوق القريب من باب السلام، والثالثة قريبة من الثانية، وتحوي خمسين دكانًا. وأن معظم دكاكينها مخصصة للأقمشة والعطارة. وأن فيها أنفس المجوهرات والعطورات. إلا أنه اشتكى من غلاء أسعارها. (ص ١٨٦).

معظم دكاكين مكة المكرمة مخصصة لبيع الأقمشة والعطارة

وذكر أوليا جلبي أن بعض أهالي مكة المكرمة مسرفون مبذِّرون، بسبب الثراء الذي يمتازون به. كما ذكر أن بعض رجالها مغلوبون على أمرهم في وجه النساء. وأنهن لا يطبخن الطعام في منازلهن.

ثم تحدث الرحالة عن العادات المتبعة لدى الأهالي في مكة المكرمة في تجهيز الجنائز والصلاة عليها ودفنها في مقبرة المعلاة، وأنهم يحترمون الميت كثيرًا، مشيرًا إلى أنهم يزورون هذه المقبرة يومي الاثنين والجمعة، وأنهم يكثرون من قراءة القرآن الكريم. كما أفاض أوليا جلبي في الحديث عن مقبرة المعلاة، وأشهر المدفونين فيها في الإسلام. (ص ١٨٦).

وقد أورد بعض المعلومات عن أشراف مكة المكرمة أيضًا، فذكر أنهم يعيشون على الأموال التي تأتيهم من العالم الإسلامي، وأنهم مسرفون مبذِّرون. كما أشار إلى أن العربان حين قدومهم إلى الحج يقدّمون للشريف الهدايا حسب مقدرتهم. وذكر أن الشريف يدير شؤون البلد من خلال مئتي شخص من الحراس ورجال الأمن. وأن المخصص المالي له من لدن السلطان العثماني ألف ذهب، وأن له نصف واردات جمارك جدة وينبع البر والبحر. وقد ذكر أيضًا أن الشريف سعد الذي كان أميرًا على مكة المكرمة في أثناء قدومه قافلة تلك السنة، قد عارض تصرفات أمير القافلة حسين باشا، وأنه لم يستجب لدعوته في اليوم الثاني من العيد (أي: الحادي عشر من شهر ذي الحجة عام ١٠٨٢هـ). وخرج من مكة المكرمة غاضبًا، فنصب مكانه الشريف بركات. وقد بايعه جميع الأعيان في البلد بما فيهم أمراء قافلتي الحج المصري والشامي. وقد ترك في تلك السنة ألفًا وخمسمئة رجل من عساكر مصر في البلد الأمين، كتدبير احتياطي في حال قيام الشريف سعد باسترداد منصب الإمارة من الشريف بركات. (ص ١٦٧).

٤ - أماكن الزيارة والأماكن الأثرية في المدينة المنورة ومكة المكرمة:

أولاً: أماكن الزيارة والأماكن الأثرية في المدينة المنورة

لقد تحدث أوليا جلبي عن أوصاف الحرم النبوي والروضة المطهرة من حيث البناء والعمران، وأورد الكتابات الواردة على جدرانه، كما تحدث عن آداب السلام على النبي ﷺ، وصاحبيه الكريمين وآل بيته الطاهرين. ثم ذكر طرفًا من الأوقاف الموجودة داخل قلعة المدينة المنورة، إذ أشار إلى مدرسة سيف الدين سلطان، وقد كتب على بابه ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ

سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (٣٨) وتحته مباشرة عبارة "أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة الأمير الكبير المحتاج إلى عفو الرحمن سيف الدين خوبان والخاتونة المعظمة سنة أربع وعشرين وسبعمئة". وبجانبها مدرسة السلطان قايطباي، ثم مدرسة سقولو محمد باشا بجانب باب جبريل، ثم أوقاف محمد الثالث بجانب باب السلام.

وقد أشار الرحالة إلى أن عدد المدارس (الشرعية) الموجودة داخل القلعة بالمدينة المنورة مئة وثماني عشرة مدرسة، بالإضافة إلى وجود عشرين مدرسة للصبيان، وسبع دور للقراء، وسبع دور للحديث، وسبعين سبيلاً. وذكر أن أوقافًا بعضها كبيرة، يتم فيها توزيع عصير العسل والسكر على الحجاج. وأورد بعض الكتابات الموجودة على جدران تلك السبل، منها: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٣٩) ، و ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ (٤٠).

ثم تحدث أوليا جلبي عن الأحياء الواقعة خارج قلعة المدينة المنورة، فأشار إلى وجود سبعة أحياء خارجها، وفيها ألفا منزل، يتكون كل واحد منها من طابقين. وذكر أن الأخشاب التي يتم بها بناء المنازل، تستورد من مصر عن طريق السويس إلى ميناء ينبع ومنها إلى البلدة الطاهرة. مشيرًا إلى وجود أربعة أوقاف كبيرة، أحدها للسلطان سليمان. وآخر لحسكي سلطان بالقرب من حمام السلطان مراد الثالث، يتم فيه توزيع الأكل على الجميع ليل نهار، ودون التفرقة بين الفقير والغني. وذكر الرحالة أن بعضًا من ست وأربعين مدرسة قد تحولت إلى منازل للسكن، وأشار إلى وجود ست دور للقراء، وإحدى عشرة دار للحديث، وعشرين مدرسة للصبيان في الأحياء الواقعة خارج القلعة.

وقد ذكر أيضًا من أماكن الزيارة الواقعة خارج المدينة المنورة البَقيع، ومسجد قباء، وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

---

(٣٨) سورة الإسراء ، الآية : ١٩.

(٣٩) سورة الإنسان ، الآية : ٢١ .

(٤٠) سورة الإنسان ، الآية : ١٨ .

وشهداء أحد، والمكان الأخير يقع بمسافة ساعة من الحرم، إذ سار إليه أوليا جلبي راجلاً. (ص ١٢٨-١٣١).

ثانياً : أماكن الزيارة والأماكن الأثرية في مكة المكرمة

لقد تحدث أوليا جلبي عن أوصاف بيت الله الحرام من حيث البناء والعمران والتخطيط والساحات، ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، وباب الصفا، وكسوة الكعبة المشرفة، وكيفية إعدادها، وذكر آداب الدخول إلى الحرم، وأورد بعض الأدعية المأثورة في ذلك. ثم تحدث عن المشاعر المقدسة، وذكر أوصاف منى وعرفات ومزدلفة، والجبال الموجودة في تلك المشاعر، مثل جبل عرفات وجبل مهيب، وما سماه بجبل صفاء الواقع تحت جبل أبي قبيس، فأشار إلى أن منازل الأشراف توجد على تلالها أدوارًا أدوارًا. وتحدث عن مسجد إبراهيم - عليه السلام - في عرفات، وهو أكبر مساجدها، وذكر أوصافه، وأشار إلى أن الحجاج يدخلونه أفواجًا أفواجًا ويجمعون فيه الصلاة يوم الوقوف قصرًا. كما تحدث عن المزدلفة ثم منى، وما ينبغي على الحجاج القيام بها من واجبات وسنن. وذكر أوصاف بعض الجبال الأخرى في المشاعر منها جبل "سبر"، وجبل "المرسلات" الذي نزلت فيه على النبي ﷺ سورة المرسلات، ثم جبل "العقبة" الذي في أدناه مسجد البيعة، ثم "جبل النور". (ص ١٨٧-١٨٨).

وتحدث الرحالة بَعْدُ عن حدود مكة المكرمة، فذكر أنها تحد من الشمال بجبل ناقية الواقع في ستة عشر منزلاً، ومن الغرب بالمويلح الواقعة بعد ثمانية عشر منزلاً، ومن الجنوب مدينة جدة الواقعة بمسافة (١٢) ساعة، ومن الشرق نهر القاع الواقع بعد عشرة منازل. وقد ذكر حدود الحرم في موقع آخر بعده بصفحات (ص ١٦٧).

أما ما يخص أوصاف بيت الله الحرام فقد ذكر الرحالة أن السلطان سليمان قد أمر المعمار سنان بوضع عتبات لأبواب البيت المعظم التسعة والثلاثين، للحفاظ على البيت وصحنه من مياه الأمطار والسيول. كما ذكر أن باب السلام قد تم ترميمه من لدن

السلطان سليمان عام ٩٥٩هـ، كما أن هذا التاريخ مكتوب عليه. ثم ذكر من أبواب البيت المشرف باب السلام، وباب بني شيبة، وباب النبي، وباب الجنائز، وباب عباس، وباب علي، وباب بني هاشم. وهي كلها تقع في شرق البيت. وذكر عدد أبوابه في الجنوب بأنها سبعة، وهي باب الأسواق، وباب الصفاة، وباب مخزوم، وباب أجياد، وباب مجاهدية، وباب فندق الأمة، (ولم يذكر اسم الباب السابع). أما في الغرب فقد ذكر اسم بابي إبراهيم وباب العمرة من أبوابها الثلاثة. وقد ذكر الرحالة من أبواب البيت الحرام في الشمال باب زياد، ثم باب دار الندوة، ثم باب الباسطية. (ص ١٧٠-١٧١).

وتحدث أوليا جلبي أيضًا عن مآذن الحرم السبع، مشيرًا إلى أن أقدمها هي مئذنة باب العمرة، وقد أقامها منصور الدوانقي العباسي. وذكر مواقع المآذن الأخرى بأن الثانية مئذنة باب السلام، وقد جددها السلطان سليمان، والثالثة مئذنة باب علي، وهي من عمارة العباسيين، وقد جددها أيضًا السلطان سليمان، والرابعة باب الحضر (هكذا)، وهي أيضًا من عمارة العباسيين، والخامسة مئذنة باب زياد وقد أقامها سلطان مصر الملك الأشرف باي برس، (ولم يذكر الرحالة المئذنة السادسة). أما السابعة فقد أشار إلى أنها أعلى المآذن السبع. كما ذكر أن سبعة مؤذنين يعلنون عن دخول الوقت على المآذن السبع لمدة ساعة كاملة. ثم تحدث الرحالة عن بناء البيت العتيق عبر التاريخ الإنساني الطويل، من خلال المراجع التي اطلع عليها. (ص ١٧٠).

وقد أورد أوليا جلبي معلومات عن الحجر الأسود، وعن ماء زمزم ونبعه، وعن باب السلام القديم قبل التوسعة التي شهدها الحرم، وعن مقام إبراهيم عليه السلام، ثم ذكر أسماء بعض مساجد مكة المكرمة في عهده، منها مسجد النبي ﷺ ومسجد عمر ومسجد أبي بكر، ومسجد الحق، ومسجد الركوب، ومسجد المدعى. وأشار إلى وجود (٧٤٠) محراب في مكة المكرمة. وتحدث كذلك عن الأوقاف الموجودة داخل مكة المكرمة وسبلها. (ص ١٧٤).

الخاتمة:

تم إلقاء الضوء على بعض المباحث التي دوّنها أوليا جلبي في رحلته. وأشير إلى مباحث أخرى ضمن هذه الدراسة إشارة عابرة. كما أهملت بعض المعلومات بعدّها غير جديرة بالذكر. ومهما يكن من أمر فإن رحلة أوليا جلبي قد لقيت قبولاً عامًا من لدن الباحثين المتخصصين، أو الملمين بأحداث المدة التي عاش فيها الرحالة. وتعدّ رحلته باكورة رحلات رجال الدولة العثمانية لا إلى الحجاز وبعض البلاد العربية فحسب، بل حتى إلى بعض مناطق أوربا وآسيا وإفريقيا.

ولقد تبين من خلال قراءة الكتاب أن المؤلف كان ملمًا بأحداث التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية إلمامًا جيدًا، ساعده على توضيح كثير من اللمحات التاريخية التي أوردها في صلب الرحلة. وكانت ذاكرته قوية في استرجاع ما يتعلق بمعالم الأماكن التي زارها أو مر بها، من خلال اطلاعه الواسع على المراجع الإسلامية والتاريخية المتوفرة في عهده، لا باللغة العثمانية فحسب، بل حتى باللغة العربية.

وعلى الرغم من مكانة أوليا جلبي التاريخية، إلا أن عمله هذا مثل أعمال غيره من البشر لم يكن خاليًا من الأخطاء والنواقص. فالكمال لله - تعالى - وحده. وعلى رأس تلك الأخطاء تضخيم كثير من الأمور، وإيراد بعض الأساطير، وترك بعض الأماكن من الرحلة فارغًا بغية إكمالها فيما بعد. ولعل السبب في انتهاجه لمسلك تضخيم بعض المعلومات والإحصاءات إضفاء نوع من الجذب والانتباه على الرحلة، وقد تحقق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.